الأمكنة المُتاحة ضيقة جدا

حسام الدين عبد الباسط

قصص

دار ليلى للنشر والإعلان

الأمكنة المُتاحة ضيّقة جداً

قصص : حسام الدين عبد الباسط عبد الخالق

ReligionSword9@Gawab.com

التصحيح اللغوي : سارة عبد الناصر - محمد عيد

تصميم الغلاف : هشام سيد

دار ليلى للنشر والإعلان

المدير العام : أ. محمد سامي

العنوان : 23 ش. السودان - الدقّي

☎ : **0123885395 - (002)3370042**

*www.**DarLila**.com*

Dar-Lila@Hotmail.com

رقم الإيداع : 2007/1997 - الطبعة الأولى

■ ■ ■

الأمكنة المُتاحة ضيّقة جدًا

حسام الدين عبد الباسط

إهداء

إلى روح أبي..

إلى أمي..

إلى إخوتي (جمال)، (مي)، (سعاد)، (هديل)..

إلى عمي (عبد الفتاح عبد الخالق)..

إلى (عبد الله) و(فرح) الصغيرين، ووالدهما..

حسام



المحتوى

□ □ □



محاولات للهرب

"هل بدأت؟..

هل تأخرت؟..

أكنتُ أؤجّلُ براءتي كلَّ هذا الوقت؟!.."

(جمال القصّاص)

"السحابة التي في المرآة"

(1)

حسنًا.. أنت الآن هنا.. ربما لا تكون كذلك غدًا..

تبدأ بنفض غبار أحلامك الكابوسية.. تمسح الدم المتراكم على فمك، وعلى يديك.. ترفع عنك قيود وأحبال وجنازير تداهمك يوميًا كـ(جاثوم رفعت)..

هذا أفضل بكثير.. ربما يكون ذلك أسوأ غدًا..

تلقي عليك العصفورة ذو الوجه الأبيض التحية كالعادة.. دائمًا تنتظرك باسمة على غصن بارز بالشجرة التي تواجه نافذة غرفتك.. هنا، وهنا فقط، تراودك الأفكار خبيثة.. تراود العصفورة عن ذاتك.. تستدرجها حيثما تبغي.. تهمس لها.. توشوشها.. تعرض عليها الصفقة: ذاكرتك مقابل جناحيها.. "جربي فقط"..

هنا، وهنا فقط، تصرخ العصفورة.. صراخًا بشريًا: "وماذا

حملت ذاكرتك غير الأوجاع يا مسكين؟!"..

تحاول إقناعها، ستجعل لها مكانًا لائقًا بـأعلى غـصن فـي الشجرة ذات الساق الذهبي والأوراق الفيروزية، في اللوحة الزيتية التي تملأ جدار غرفتك.. تقسم أن لها ثمارًا، وأنك تأكل منهـا كـل يوم.. وفي الجهة المقابلة، سترسم لها وطنًا بحجم الجدار.. وتشق نهرًا من ماء غير آسن.. وغابة للاستجمام.. وزيتونًا ونخلاً، وقمرًا وشمسًا، وسماءً وأحلامًا.. وسترسم صيادًا، إصبعه علـى الزنـاد، وعينه الوحيدة ترصد لها كل الغربان..

(2)

وتختال العصفورة بجناحيها، وتعايرك بذاكرتك.. عندئذ، تقول لنفسك: "سأغوي أخرى".. وتراك شيطانًا، فتفر..

ترى شجرة اللوحة وقد داهمها الخريف.. وتساقطت ثمراتها.. وطارت أوراقها مفترشة أرضية حجرتك.. عندئذ، تنتبه لمرقدك وقد سكنته الوحشة.. وكتبك وقد اقتحمتها الـصفرة.. ومرآتـك وقـد غادرتها ملامحك.. وبطاقتك وقد مُحيت منها هويّتك.. عندئذ، تقرر

الانسحاب..

ويراودك وطن الجدار عن ذاته..

آآآآآه يا فتى.. كم من وطن روادك، وكم من وطن راودت..

وتلسعك سياط شمس الظهيرة، بينما أنت في قلب الميدان تبغي المغادرة.. الشوارع أوردة.. والناس، الدم العشوائي في الجسد الفاسد.. الجسد لا يتحرك، فقط تطاردك الحافلات كثيرًا.. ترمق السيارات الفارهة، ولا ترى أبدًا ركابها.. بينما ترى العرق ينهمر من إبط كل من حولك في هذا الزحام..

وتراهم جميعًا بلا ذاكرة..

وفي لحظة، أو أقل.. وقبل أن يأتي أحدهم ليطلي دنياك بالسواد، في خضم الزحام.. تقرر شيئًا أخيرًا..

ستركب أية حافلة.. ستنزل في أية محطة.. ستسير في أي اتجاه.. ستدخل أي شارع.. ستصعد أية عمارة.. ستطرق باب أية شقة.. ستسأل أول من يفتح لك، ستكون فتاة.. باهرة الجمال.. ذكية.. شفّافة.. نقية.. مثلك تمامًا.. فتاة أحلامك.. أخيرًا أفرزت

أحلامك شيئًا لا تفر منه..

ستسألها السؤال الذي راودك كثيرًا، وحيّرك كثيرًا.. السؤال الذي طالما اعتقدت أنها الوحيدة التي تعرف إجابته: "ما بال الوجوه المُغيَّبة في حيرة التأويل؟!"..

............................؟!

عندئذ، تفيق على صوت صراخ شاب في مثل عمرك تمامًا، صدمته سيارة فارهة وهي تتفاداك..

دائمًا تتفاداك السيارات الفارهة..

وبينما تهاجمك أبواق سيارات الإسعاف، وبينما تتجه نحوك كل همهمات الاتهام: "هو السبب".. عندئذ، وعندئذ فقط، تسأل نفسك: هل أنت حقًا سبب كل هذا؟!..

(3)

متى لفظك الشارع آخر مرة؟!.. لا تذكر.. لكنه يبتلعك الآن.. يتلوّى جسده كدودة عملاقة كلّما تعمقْت..

"لماذا لا تكون كل الشوارع مستقيمة؟!"..

ها هو الشارع بلا أية رتوش..

مازالت العجائز يجلسن على جـانبي الطريـق.. يمصمـصن شفاهن، ويتمتمن بكثير من الهراء، عن الفارس الذي مات.. عـن الخراب الذي حل..

مازالت البنات يتودودن عليك.. تتمناك كل واحدة لنفـسها.. تقول إحداهن: "غريب.. خجول"..

"أم تراهم يسخرن؟!.. ويرمين عليك بعضًا من أحلام لا قبل لك بها!"..

مازال الكلب ينتظرك عند حافة الشارع، ليرمي عليك بعـضًا من نباحه اليومي..

لكنك تبدأ في ممارسة حياتك العادية جدًا..

تأكل.. تشرب.. تنام.. تقوم.. ترتب أوجاعك.. تستجدي البكاء كالعادة..

البكاء الذي لا يأتي أبدًا..

تنظر في فراغ اللوحة.. تضحك ضحكاتك الصدئة.. تقرأ في كتاب الدهشة، مقاطع من تراتيل البوح.. ترمق السماء من خلف الأشجار العالية طويلاً..

آآه يا فتى..

مازال حلم الطيران يراودك.. ومازلت العصافير تخلف موعدها معك.



من رؤيا العابر

"العابرون لا يبيدون ولا يهلكون.. لأن روح العابر ليـست رهينة الجسد، ولكنها جوهر يهاجر في ركاب الزمن.."

(إبراهيم الكوني)
"أبيـات"

بين حقيبة سفر أُعِدَّت على عجل، ومنطقة نائية لمحطة قطار، تحركت ببطء.. قدماي ثقيلتان.. طبقــة طينيــة ســميكة تلتــصق بحذائي.. صعدت بضع درجات تجاه الرصيف الغارق في العتمــة.. (تبعه تسعة أزواج لزجة من أعين حمراء ذئبيّــة).. بعثــر صــوت اصطكاك الحصى المبلل بمياه الأمطار تحت قدمي صمت المكــان.. الرصيف غير واضح المعالم، بعض المقاعد الحجرية متناثرة هنــا وهناك، ومبنى من حجرة واحدة مظلمة تمامًا، بعــض المــسافرين الصامتين في أردية سوداء.. ساكنين.. وجوههم قُدَت مــن ســواد الليل، وأبدانهم من حجر المقاعد..

البرد شديد.. أطرافي تتجمّد، والريح لا تهمــد.. خمّنــت أن انقطاع الأضواء وقلّة المسافرين سببها الأمطار الكثيفة التي هطلت منذ ساعات.. جلست على أحد جانبي مقعد حجري جلس عليه أحــد المسافرين رغبة مني في المؤانسة البشرية، ربما فتح أحدهم حوارًا

بدّد ظلمة هذا الليل وبعث في المكان الدفء.. (ماله لا يسمع سنابك الخيول الهاربة، وسباب المدينة، وصخب الطرق البعيدة؟!)..

بقع متفرّقة من الماء الأسود تستقر في أمكنة عدة، وفي السماء تزمجر السحب.. النجوم تبدو غريبة، تبرز منها تكوينات مدبّبة كأسنّة الهراوات.. حاولت تذكّر ملامح السائق أو معالم السيارة التي أقلّتني عبر الشوارع الخالية، فلم أفلح.. (هل بقعة دم تلك التي رآها تخرج من وجه السائق، تتمدّد في الفراغ وتُغشي ملامحه؟!).. ضممت ياقتي معطفي متقيًا سادية الشتاء وأطراف سياطه.. سمعت بعض همهمات المسافرين من خلفي، استدرت حذرًا، لطمني الفراغ والصمت..

مرّت ساعة، ربما أكثر.. الريح تدحرج علبًا فارغة، وأوراق شجر، وبقايا أشياء لا أعرف كنهها.. (أم دبيب الأحذية الثقيلة والأجساد المتربّصة في الملابس الواقية، يندسّ في الريح؟!).. أين ذهب المسافرون؟!..

الظلام موحش.. ممتد.. ثمة أشجار قريبة حول المكان.. نقاط متناثرة واهنة من الضوء الأحمر والأصفر والأخضر تظهر في البعيد.. بعض النوافذ في المباني القليلة التي لا يمكن تحديد

المسافة إليها بدقّة، تومض بعضها لفترات قليلة، ثــم لا تلبــث أن تخبو، ثم تومض مجددًا.. (أم عيون مُرسلة تلك، ترصــد الحقيبــة وتتحسّس الأوراق الممنوعة، وتلمع في الظلام؟!).. وعبثًا حــدّقت في الأسقف والحوائط المُتاحة بحثًا عن أثر لأي مصابيح مطفــأة أو معطوبة.. (ماله يتحاشى الخرائب وآثار الجثث القديمة؟!).. تجولّت عبر ظلام الرصيف الخالي لبضع خطوات.. تأمّلت القضبان الحديدية والحصى الغارق، وأنا أُمنّي نفسي بالصوت الهادر يقترب، والقطار يخرج من فم الظلام، ويتوقّف.. رفعت رأسي محملقًا فــي الــسقف السماوي ذي النجوم المُعادية.. هي نجوم أخرى في ليل آخر غيــر الذي أراه من نافذة حجرتي كل مساء.. هل كنــت مخطئــا حينمــا رغبت في المغادرة ليلاً؟!.. هل بدا ذلك تصرّفًا عدوانيًا؟!..

مازال القطار غائصًا في المجهول.. لم تمر سيارة واحدة، ولم يأت مسافر واحد.. ثمة خطأ ما.. (في العتمة لمعت أعين وتهامست أجسادٌ تسعة).. التفتُّ صوب حجرة المبنى الوحيد.. لففــت حــول المقاعد واتجهت نحو الحجرة راجيًا في عاملٍ يغط في نوم عميق.. (في العتمة تأهّبت قيود وأحبال وجنازير وفحّت أجــسادٌ تــسعة).. وجدت بناءً مصمتًا، لا نافذة ولا باب واحد.. (اهرب.. اهرب كأنمــا

خلفك ألف شيطان).. الطرق أمامي متداخلة.. الظــلام والخيـــالات تـهيئ لي أن الأمكنة تتبدّل، لكني تحرّكت مغادرًا.. أحكمت قبــضتي على حقيبة سفري.. وجِلاً نزلت الدرج الجدري، خطاي مبعثـــرة.. أسير كجبل جليد متيبّس ينفض السواد المتــراكم، ويخـــوض فـــي المجهول.. كائنات خفيّة تجذبني من الوراء وكأنها تريد أن تبقينـــي قيد العتمة.. كادت قدمي أن تنزلق، (هــل أجــساد مُــستغيثة تلــك المُسجّاة أسفل الضباب العائم تُعثّر أقدامه؟!)، لكني لم أمش كثيرًا.. برقت السماء، وانهمر المطر مجــددًا غزيــرًا أســود.. تراجعــت بخطوات سريعة.. لذت بسقف أحد المقاعد، إلا أن الأمطـــار كانـــت تنزل مائلة كخناجر.. صعدت بقــدمي أعلـــى المقعــد، واحتميــت بالحقيبة، لكن غطاءها انفتح فجأة.. تطايرت أوراق وسقطت أشياء وانفرطت على الأرض الغارقة.. (قالت تسعة أزواج لزجة من أعين حمراء ذئبيّة وهي تغادر: "لم يعد لوجودنا ســبب").. بــدأت نقـــاط الضوء المتناثرة تختفي واحدة تلو الأخرى.. فجأة، تصاعد من بعيد الصوت الهادر، وبرز أخيرًا الكائن المعدني الأسود.. غير أنه مَرَقَ دون أن يُخفّف من سرعته ويتوقّف، مُخلِّفًا هبّاتٍ سريعة مفاجئة من الهواء البارد راحت تضرب وجهي في عنف..

❋ ❋ ❋

عزيزي جميل

"ما حاجتي لذاكرة؟..
وكلّما اتكأتُ داهمتني الحروب..
ولماذا أعلّمُ الصغار رسم الورود؟..
وأفقهم يزدحم بالخفافيش.."

(علي خصباك)
"رئة واحدة"

عزيزي (جميل):

بيني وبينك مسافات وأزمنة.. صحاري وملامــح محترقــة.. حوائط غير مرئية، وأسوار لا تتحطم، وجسد لا يتحرّك..

وحين تغمرني حمرة المغيب، أتذكّرك.. أيامنا الخوالي.. كثيرًا من الضجيج والفوضى التي تشاركناها سويًا، وأقولها بثقة: "حتمًــا لم يكن هذا العالم لك"..

ربما مازلت تبحث عن ذراعك المفقــودة.. تنــبش منتــشيًا عشرات المقابر الجماعية باحثًا عنها، وعن سبب فقــدها.. بينمـــا مازال هدير الدبابات، وطنين الطائرات يعربد في أذنيك..

ينغرس لحم قدميك العاريتين في رمل لـــه ملمـــس الجمـــر.. وتمتزج أوامر قائد الكتيبة، وسباب المدافع، وألحان الدماء والعدم.. مع توسلات (أحلام) بأن تعود.. وترانيم وعودك بالمحاولـــة.. مـــع

نشيد مدرسيٍّ قديم باغتك حينها..

ربما لم تتساءل عن الطائر الأخضر الذي كان يظلّك، لم يرهبه تحليق الطائرات المعادية، ولا ارتجاجات جدران السماء، ولا الرعب المتقاذف من كل مكان.. ربما لم تنتبه حينها..

وها أنت قد عدت..

ربما قذفك سكان المقابر ببعضٍ من السباب المغموس في رائحة البارود.. ربما طاردك هيكل عظمي، خالستَهُ وسرقت ذراعه اليمنى بالخطأ.. ثم انتبهت أثناء عَدْوِكَ فرميتها، بينما بعض الجماجم تلوك التبغ والذكريات.. تراقبكم وتضحك..

لكنك لم تبرر أسباب اندهاشك إذ عدت، فلم تجد (أحلام)..

لماذا تناثر صوتك حينها خاليًا من التحدي المعتاد؟!.. همهمت كثيرًا، ورحت تتمتم بتعاويذ قديمة كنتَ متيقّنًا من أنها لن تجدي نفعًا..

ثم همْت.. واندفعت كدرويش تجاه المقابر.. تلك التي تقبع منعزلة في قلب الصحراء البعيدة.. منبوذة.. تتعذّب نهارًا تحت

سياط شمس صارمة.. وليلاً تحت وطأة الذكريات، وقسوة البرد..

وهناك ظللت تبحث، وتبحث.. تعابث سكان المقابر، حتى خالسك النهار.. انسلخ من الأمكنة حولك، وانسلّ إلى أزمنة أخرى مجهولة.. وبقيت وحيدًا..

عزيزي (جميل):

فلتستعد بعضًا من مهارات الأمس.. تفادى هذه الشاحنة المندفعة من الظلام كوحش أسطوري.. وحاول أن تتعلّق بمؤخرتها.. وانتظر ريثما ينتبه لك السائق فيجلسك جواره.. ومن ثم أخبره أن ينزلك في إحدى الميادين الكبيرة من تلك التي تخرج منها الخطب والمظاهرات والوعود المؤجّلة..

وفيها، فلتنصب خيمتك.. ولتتجنب دومًا المنتصف.. ولا تسل عن الطائر الأخضر الذي يأبى أن يتركك، وها هو قد عشّش فوق ناصية خيمتك، وأعلن الرغبة في المرافقة..

ثم اختر إحدى الطرقات التي يكثر فيها العابرون.. وحاول أن تتسوّل بعضًا من أحلامهم، وتلملم الدهشة المتكوّمة فوق وجوههم وقلوبهم وهم يرمقون بطنك المبقورة، وعينك المفقوءة، وذراعك

المبتورة..

لكنك أبدًا لم تكن تعد لكل شيء عدته.. وكنت دومًا ناسـيًا أو مهملاً.. لقد انهمكتَ في تقليص ملامحـك، ورسـم أقنعـة قديمـة مستعادة.. كما كنت ماهرًا حقًا في إبراز فراغ ذراعك الناقصة..

لكنك لم تنتبه لمعطفك ومنه تبرز أشلاء مبتـورة لـم يُحكـم وضعها.. ومن فمك راحت تنساب دماء مراوغة.. ومن عينك راحت تتجسّد كائنات للعتمة.. وفي يدك الوحيدة قلب منـــزوع.. – قلـت للمحققين فيما بعد أنه لأحد الأعداء.. وأنك احتفظت بـه كتـذكار.. لكنك لم تبرر سبب استمراره في التقطير إلى تلك اللحظة – ..

فماذا كنت تنتظر من العابرين، وقد غزا الخـوف أجـسادهم المدنية؟.. هل كنت تنتظر أكثر من أن يرموك بدهشاتهم.. تلك التي رحت تفتّش بينها عما انتظرت بلا جدوى؟..

ثم إنك قد عدت إلى خيمتك تجرجر عباءة خيبة ثقيلة..

لكنك تعرف أن الرفاق لا يمزحون.. فلا تندهش إذا ما داهموا خيمتك، وملابسهم السوداء تملأ عينيك.. ولا إذا ما هدموا مـأواك المؤقّت، وأفزعوا طائرك الأخضر، واقتادوك معهم حـاملين لائحـة

اتهامات طويلة نوعًا.. وذرائع بإثارة الفتن والثورات..

ولا تنتظر أبدًا أن يَرِقَّ الرفاق..

ثم إنك كنت تبكي مندهشًا!..

فَلِمَ تندهش الآن فقط، وقد اندهشت من قبـل لأسـباب أكثـر إقناعًا؟!..

عزيزي (جميل):

فلتنفض غبار السجن.. لتنثر دموعـك، وتمـزّق أوراقـك.. ولتذهب – الآن – إلى إحدى العرّافات المحنّكات.. واسألها أين قد ذهبت ذراعك؟.. ولماذا تركتك (أحلام)؟.. ولماذا لم يتصدّق عليـك المارُّون بحلم ما؟!.. لكن لا تسلها عن الطائر الأخضر، وأين هـو الآن.. فلربما ضحكت عليك كثيرًا جدًا، وصرت في موقف حرج..

تحياتي..

....

آه.. قبل أن أنسى..

حاول أن تسأل العرّافة عن مكان جثتي.. فلربما ينقلني أحـد المسئولين لمقبرة حكومية تليق بي، مـع بعـضٍ مـن المراسـم الباردة..

سلام..

....

أوه.. معذرة يا عزيزي.. دائمًا لا تكون نهاياتي موفّقة..

ربما لو تأمّلت جثتي المحترقة الآن لفهمت!..

على كل حال، كثير من اللاسلام..

الكثير حقًا..

أعرف أن هذا سيروقك..

صديقك القديم: (فارس)

❋ ❋ ❋

وقائع طمس

"لا دمع اليوم، ولا ثأر غدًا..
اليوم، صمت.. وغدًا موت.."

(وصفي صادق)
"رسالة الإعدام: من أوريست إلى إليكترا"

حين مات قالوا: جُنَّتْ..

لم تصرخ، ولم تبك.. بل مالت على الــرأس الــذي هــشّمته الهراوات، والجسد الذي ثقبته الرصاصات، والوجه المغمور بدماء طازجة، والملامح المطموسة.. غمغمت للحظات وكأنها توشوشــه، ثم اعتدلت بملامح لم نرها من قبل.. لملمت أطراف ثوبها المترب.. ومضَ في عينيها بريق له ألف لون، وارتسمت على وجهها تعابيرٌ مُحيّرة، ولم نفهم..

في ظهيرة كل يوم، تخرج من بيتها.. تقطع الطريق إلى نهاية البلدة.. تحمل سلّة مغطّاة تفوح منها روائح طيّبة.. تمشي بمحــاذاة السور الحجري الأبيض الذي يمتد إلى مالا نهاية.. تغوص أقــدامها في الحشائش الخضراء التي تنبسط مثل سجادة عملاقة.. تسبح في زرقة السماء ونسائم الصيف.. تداعب عــصافير الأشــجار.. ثــم تنحرف فجأة عبر بوابة حديدية مفتوحة إلى طريق ترابــي تلــوح

عبره شواهد القبور.. تدب قدماها النحيلتان، وترتفع سـحب مـن غبار عتيق، يتكاثف لبرهة، ثم ينقشع ببطء..

وكنا نلمحها من بعيد، وحينما نقتـرب، لا نجـدها، ولا نجـد الطريق الترابي.. وحينما نبحث نضل الطريق إلى بوابة المقـابر.. نتعلل بالنسيان، وعدم الأهمية.. نتشاغل بسرب طيور عابر، وننسى كل شيء..

قبل المغيب بقليل، نراها عائدة.. تجـوب الطرقـات المعبّقـة ببقايا روائح الياسمين ومسك الليل إلى بيتهـا.. سـلّتها فارغـة، وثوبها مغبّر.. تحمل ابتسامة، ووجهُها يشع سكينة واطمئنان..

في السماء التي على شفا الظلمة، ترفـرف أجنحـة سـوداء عملاقة.. إلى قلوبنا يتسلل خوف، وعلى وجوهنا ينشع قلق، وربما نتشاجر.. فلماذا حين مات قالوا جُنَّتْ؟!..

ما لا يعرفه أحد:

(1) – المرأة كانت حينما تلج الطريق الترابي عبـر بوابـة

المقابر، تنظر خلفها.. تتأكد من أن ستائر الغبار قد انفــردت، وأن أحدًا لا يراها، ثم تبدأ بالبكاء..

(2) – حينما كانت المرأة تصل إلى قلب المقابر اللانهائيــة، تجثو على ركبتيها أمام شاهد رخامي أبيض عليــه أحــرف قاتمــة ومطموسة تستند عليه شجيرة صبّار خــضراء شــاحبة.. تبتــسم، وتُفرغ ما في سلّتها: طعام وفاكهة وشاي ومــاء.. ثمــة أصــوات تخرج عبر حناجر خفيّة تبادلها الحديث.. وحيثما تمد يدها بالطعــام والفاكهة إلى ما لا يُرى، كان الطعام يذوب في التراب ويختفي..

(3) – حينما تهب نسمات المغيب، كانت المرأة تقوم.. تلملم أشياءها، وتمسك سلّتها الفارغة.. تمسح الدموع الممزوجة بغبــار الطريق عن وجنتيها، وتمضي عائدة.. تنسى دائمًا أن تنفض ثوبها المترب.. وكانت تضلّ الطريق كثيرًا..

ما لا تعرفه المرأة:

شواهد المقابر كثيرة متشابهة، كلها رخامية بيــضاء.. كلهــا مطموسة الأحرف.. وكذلك شجيرات الصبّار، كلها خضراء شاحبة..

وكذلك الموتى، متشابهون.. مازالت رؤوسهم تحمل آثار الهراوات.. مازالت أبدانهم تحمل ثقوب الرصاصات.. جلودهم محروقة لزجة ودماؤهم طازجة.. المقابر ممتدة.. والريح تهب خفيفة.. وفي السماء تحلّق طيور بيضاء شاردة.. يدهمها الليل في شرودها، يصبغها باللون الأسود، فتبدو عملاقة، مخيفة.. والمرأة كانت تجلس في كل مرة أمام شاهد قبر مختلف وهي تظن أنه هو..

❋ ❋ ❋

الصديـــق

"الليل.. جناح الشوق إلى كل الأشياء الحلوة المنـــسربة مـــني غصبًا.."

(محمد قطب)
"في الليل.. تكثر الحشرات"

كنتَ حين يلوح المغيب، ترقب دبيب الليل في توجّس.. تراقب امتداد البقع السوداء الباهتة ببياض ضوء النهار الذي كان يبدأ في الشحوب.. حينها، كنت تلملم أشياءك الصغيرة.. تـودّع أصـدقاءك وغبار الشارع المبتل، وتنـزلق مسرعًا داخل جوف المنـزل، بينما عقلك الطفل يطلق أسئلة مرتبكة، لماذا؟.. هل هذا حتمي؟!..

حينما يسود الظلام، تندس تحت فراش ثقيل نوعًا.. تخـتلس نظرات مضطربة عبر زجاج نافذة غرفتك المعتمة.. ترمق السماء، والنجوم، وألف ظلٍّ لألفِ مسخٍ يحوم حول غرفتك الآن.. تلك التـي لا تخرج إلا في ظلام الليل.. تبدأ مسيرها من ناحية المقابر، وعبـر سواد الليل الكثيف.. تجوب الطرقات الترابية الصامتة.. تمشي تجاه البيوت التي يتسرّب عبر نوافذها الـضوء والأصـوات.. تـدخلها بطريقة ما.. ولا أحد يجرؤ أو يتمكن من منعها..

ترتجف.. تغمض عينيك.. تتصلّب وتتظاهر بالنوم العميق، أو

بالموت.. لأن أي انفلات لأي حركة معناها أن المسخ قـد انتبـه.. وكلّما تحرّك باتجاهك تلوح مخالبه وأنيابه، وفمه الواسع العميـق، ورائحته المقيتة..

تحلم بعملاق طيب، يأتي لأجلك مـن خلـف الـتلال البعيـدة المغمورة بالنجوم والأمطار.. يبتسم، ويزحزح جـزءًا مـن جـدار الليل.. أو أن تطول ذراعك فجأة، وتمتد، فتمزّق قطعًـا مـن تلـك الخيمة السوداء الكبيرة التي احتلت الكون.. فينفذ الضوء المتواري عبر تلك البقعة تجاه منـزلك.. عندها، يتوارى المسخ.. أو يذوب.. أو يختبئ في الحائط.. أو يهرب عبر السقف..

....

لماذا الآن كلّما غمرك ضـوء النهـار، أو لـسعتك شـمس الظهيرة.. واقتحمتك الأصوات والألوان والمواعيد الرسمية، تحلـم بخيمة سوداء كبيرة، ومسخ حنون، لا تذكر مرة أنه مسّكَ بسوء؟..

❋ ❋ ❋

أقنعة تشبه الموت

"موتٌ علمني أقتحم اللُجَّ، وأحملُ في الماء قناديل الرؤيا..
ألهمني الدرب السريَّ..
فلما حدّقتُ، أضاءت..
رأيتُ وجوهًا في بئرِ النور..
كأني أعرفُها أكثر مما أعرفُ ذاتي..
ومددتُ يدي..
فاختلج البئر، وغابوا.."

(مُظفّر النوّاب)
"وتريات ليليّة" ، بتصرّف

أحاطهما ضباب مبهم، غلّف مساحات الفراغ، وخنقت كثافتـــه حواسّهما، وامتزجت بخلايا أجسادهما خلايا ليل متواطئ.. لم تبعثره ارتجاجات السير الهادئ..

وَقَفَتْ فجأة.. أمسك يدها وضغط عليهـــا برقّـــة، واســـتحثها لمعاودة السير..

معالم الطريق تنضح بغواية ووجـــوم.. الظـــلام، والـــسكون، والأشجار المتوارية خلف الستار الـــضبابي، والـــضوء الخفـــيض المنبعث في نهاية الأفق من سماء معتمة..

ترددت للحظات، ثم مضت..

باليد الحرة لكل منهما شرعا في تحسّس موجودات وهميـــة.. وحاولا بأبصارهما انتقاء مواضع فارغةٍ للسير.. إلا أنّ كثيـــرًا مـــا وطئا كيانات طرية.. وطال ما تعرّى من أقدامهما رذاذُ سوائل باردة

على شفا اللزوجة..

ترتجف، وتطغى قشعريرة باردة.. تخبئها في ابتسامة مفتعلة..

كان يضحك، وكانت تبتسم في شرود.. يثرثر في انطلاقة من صمت ألف عام، وكانت ترد بعبارات مقتضبة، ملبّدة بخوف غريب..

شيئًا فشيئًا تلاشت عتمة السماء، واصطبغ الأفق بحمرة ممتدة، واخترق وهج لونها غمامات رمادية باهتة.. لاح من خلالها قوس لامع متداخل الألوان يربض في غمامة شفيفة، سُطّرت عليه رموز مبهمة.. تطير حوله طيور زرقاء.. تذوب فيه، تغيب.. ثم تخرج من مكان مغاير لذات القوس، وكأنها تستمد حياتها منه..

كلّما اقتربا، ازداد توهّج القوس.. ورقصت الطيور، وكأنها تتأهب لإكمال مراسم خديعة مؤجّلة..

– "إلى أين نحن ذاهبان؟.."

– "لا أعرف.."

– "هل نحن تائهان؟.."

- "معك، لا أعرف الطرق التائهة.."

ويضغط على يدها أكثر، فتلين.. وتنشغل في أمور أخرى..

تنبّهه لرائحة غريبة مشئومة، فيذكّرها بروائح الزهور، وضحكات الأطفال، وفراشات الحدائق..

دعاها للجلوس والراحة.. غمغمت أن لا مكان لفعل ذلك.. وأنها تريد أن تنتهي من هذا كله.. دعته للتراجع.. أبَى.. حدثها عن قوس الضوء، عن مدن الأحلام، عن النهار.. ورغبتها الأزلية في التعلق بخيوط الشمس..

تتجمّد.. تضع يدها على شفتيه، أن أَنْصِتْ.. يتداخل نواحُ بومٍ.. وعواءٌ.. نعيبٌ.. تراتيلٌ من نشيجٍ يأتي من مكان بعيد.. في مزيج أسطوري تدعمه ترانيم جنائزية خافتة، تأتي من كل الأمكنة حولهما، وتتصاعد.. يزيح يدها بابتسامة واثقة، ويتمتم بترنيمة ما.. تطوف بذاكرتها أغنيات جمعتهما أسفل شمس مغيب شتوية.. وترنيمات طيور تزف مسيرهما.. وأشجار تصغي للنشيد، وتتمايل..

يتوهّج وجهها بابتسامة للحظة.. ثم ينطفئ..

كان السير صعوديًا.. خدعهما توحّد عباءة الليل، فاختلطتْ في مخيّلته الأمكنة وارتبكتْ في ذهنه الأزمنة..

تراءت القمة.. لاحظا شيئًا غريبًا، خبا بريق الأفق.. عـادت عتمة السماء.. انطفأ توهّج القوس.. هدأت حركة الطيور.. ازدادت كثافة الكيانات الطرية.. خفتت الأصوات الحية من نـواحٍ ونحيـبٍ وعواءٍ.. وطغى صخب التراتيم الجنائزية، مع ذوبان كتل الـضباب، وبدأ انقشاعها..

أخيرًا انكسر الانحدار.. تجسّد المكان.. بدت قمـة منبـسطة تمامًا، وواسعة جدًا..

هناك.. على امتداد الأبصار كانت هناك آلاف القبور المفتوحة التي لا تجد من يسكنها.. وفي منطقة وسطية، كان هنـاك قبـران متجاوران في ارتفاع ملحوظ، وكأنهما عرشين لباقي القبور، يـشع منهما وهج الانتظار..

نظرا للخلف مستغيثين بالطريق الذي صار ينحـدر لأسـفل، لتنكشف آلاف الأجساد التي تضجّ بموت غريب، وملامح فَزِعـة.. وآلاف من بحيرات الدماء، والأشلاء الآدمية المتناثرة..

تجسّد الخوف، وحلّ في جسد كل منهما.. وتسلل قناعا فـزعٍ إلى ملامحهما..

نظرا للأمام باحثين عن القوس، محاولين التعلّـق بحوافـه.. لكن القوس كان قد تلاشى.. نظرا تحت أقـدامهما، تنـاثر حطـام القوس، وكانت الطيور الزرقاء ميّتة، وفي منقار كـل منهـا بقايـا حبيبات ضوء..

فجأة، انطلقا يسيران مرة أخرى تجاه المقـابر.. بـدا علـى وجهيهما ملامح التغييب، وعلى خطواتهما آلية..

وهناك، في المنطقة الوسطية.. انبعثـت أصـداء ضـحكات ظافرة..



كائنات من الليل

"من دخل؟..

من خرج؟..

لا أحدَ يعلمُ سرَّ الغرفة..

لكنهم يسمعونها كل ليلة..

تهذي من الحمّى..

عن طفولة، وعشّاق..

وغرفة أخرى.."

(عصام أبو زيد)

"ضلوع ناقصة"

الحجـــرات

عيناه الشمعيّتان كانتا تتيحان له القدرة على الرؤية في الظلام الدامس والدائم..

في كل ليلة، وحينما يجثم الليل، وتهمـد الحركـة بالخـارج، يمسك بيدها.. ينسلان من الجمع الساكن والصامت.. يصعدان لأعلى متشابكي الأيدي بخطوات متصلّبة حذرة.. يجوبان أرجاء المنـزل.. يتفقّدان الحجرات المفتوحة.. يزيحان الأتربة وخيوط العناكب العالقة على الستائر والرفوف.. يحملقان في الصور المعوجّة ذات الأطـر المتهالكة والزجاج المغبّر المكسور المثبّتة على الجدران المتشقّقة.. أو يختلسان نظرات إلى الطريق المظلم عبر فتحات النوافذ المغلقـة منذ آلاف الأعوام.. يرمقان عبر الأمطار بروق أضـواء الـسيارات التي تأتي من بعيد، لا تقترب أبـدًا.. أو يتواجهـان علـى طاولـة

العشاء، دون هدف محدد ربما..

ربما يتصنّعان حديثًا رومانسيًا على أضواء شموع وجــدوها في إحدى الصناديق الخشبية.. يتأمّل ملامحها المنحوتة ببراعــة.. شعرها الذهبي الثائر.. عينيها بلون البحر والسماء.. للأسف وجهه الجامد لا يمكّنه مرة من الابتسام..

وبينما الطاولة بينهما خاوية، تتصاعد الأصوات من أســفل.. أصوات غناء، موسيقى، رقص، وفي بعض الأحيان يتحــوّل إلــى ضجيج وصخب، فيعودان سويًا لأسفل.. يفتح الباب الحديدي.. يدخل وحده في حذر.. يغوص في الظلام ويتفقّد التماثيل التي تقبع ساكنة ومتفرّقة في أجزاء القبو.. بعض العناكب والجرذان التي تتحرّك في طمأنينة، تدخل وتخرج عبر أكوام من الكراكيب.. بعــض الملابــس الممزّقة، والصحف المصفرّة، والكتب المرصوصة فــي صــناديق كرتونية متآكلة، والأحذية العتيقة، والأثاث القديم الذي يتكــوّم فــي غير انتظام وتغطيه طبقة كثيفة من الأتربة المتراكمة.. بينما سحابة ضبابية مبهمة تأتي عبر قضبان النافذة العلوية..

يظل يتفقّد الجميع.. أو ربما يقــوم بــدور جنــدي التفتــيش ويقبض على أحد الهياكل المتهمة.. وعندما يتيقّن من ســكون كــل

شيء، يغلق باب القبو.. يعودان لأعلى مجددًا.. يجلسان متواجهين على طاولة العشاء الخاوية كالعادة.. ينظر كل منهما عبر الظلام لوجه الآخر طويلاً.. ولأجل غير مسمى..

في الحقيقة.. أصوات الغناء والرقص المنبعثة من القبو في الأسفل لم يكن يسبب لهما الإزعاج.. ما كان يزعجهما حقًا حملاتُ التفتيشِ الدائمة التي كانت تقتحم باب المنزل المهجور.. يقتحمون الحجرات.. يُضاء النور الباهر الشرهُ للانبعاث، فيغمر العيون الشمعية ويصيبها بالعمى المؤقَت.. يدخل الأفراد ذوو الملابس السوداء والأوجه الدائمة التقطيب.. يقصدونه أولاً.. ينقضّون في عنف على جسده المتصلّب بإصرارِ الثائر.. يمسكونها في غلظة وعدم اكتراث.. يمسكه أحدهم من يده الوحيدة في وضع رأسي مهين.. يقلبوها أمامه في عنف حتى تتعرّى ويلامس شعرها الأرض، فيشعر بالغضب والثورة.. لكنها ثورة شمعية صامتة، لا تقوى على الخروج..

وكانت الأيدي القاسية تعيدهما دومًا لأسفل مع التماثيل الأخرى بينما الأفواه تتساءل في دهشة.. من؟.. كيف؟.. ومتى؟.. لماذا في كل مرة هذان التمثالان تحديدًا؟..

الوجـــه

تسارعت الخطوات الثقيلة عبر الممر الأسود الطويل.. حملت أدخنة كثيفة رائحة اللحم المحترق وتسللت عبـــر قــضبان النافـــذة والفتحة الأفقية الضيقة أسفل الباب الحديدي المغلق..

تصلّب جسده.. لصق أذنه بالبـــاب الحديـــدي وأشـــار لهـــم بالصمت.. حينها، كفّ رفاقـــه عـــن الـــضجيج والـــدقّ وأصـــوات الاحتجاج.. كذلك كفّ الآخرون في الحجرات الأخرى.. لكنه أيقن أن الأقدام الثقيلة وأصوات تكسر العظام بالخارج ستختار حجرتهم مـــن بين الحجرات المتواجهة في الممر المعتم الشبيه بمقبرة لهـــا آلاف الأفواه..

عادة يدخلون.. يضعون آخرين، ويتفقّدون القدامى.. لا يعرف أحد على أي أساس يتم الاختيار.. لكن من يخرج معهـــم لا يعـــود مجددًا.. ولا يترك من آثاره سوى بعض الملابس القديمة، والجلـــد المتساقط، وصدى صراخه البائس المنبعث من الطرقة بالخـــارج..

صوت تهشّم العظام.. الأنياب الذئبية.. ورائحة تشبه رائحة اللحم المحترق..

لكنه أعد خطته على نحو مختلف.. ففيما انزوى رفقاؤه وتفرّقوا عبر الأركان وغاصوا في سواد الظلام، اختار هو بقعة ضوئية باهتة تتمزّق عبر القضبان الحديدية وتسقط على الأرض المعتمة التي تمتلئ بالحفر، وبعض الملابس الممزّقة، وأوراق الصحف الممتزجة بنسيج عناكب، وبعض أوراق الأشجار اليابسة.. وبعض الكائنات الرمادية التي تتحرّك في فزع.. وكان هذا كافيًا..

حينما اقتربت الأقدام، ثبّت وجهه أسفل بقعة الضوء، وقبع ينتظر.. لما اقتحموا الباب الحديدي تفقّدوا الجميع.. انقضوا على أحدهم وسط صراخه اليائس.. أمسكوا آخَرَ مستسلمًا تمامًا، ثم توقّفوا عنده طويلاً.. تأمّلوا عبر الضوء الشحيح وجهه المليء بالبقع الجذاميّة المهترئة.. قطع اللحم الصغيرة التي تتساقط وتتفتّت أسفل أقدامهم.. ملامحه المتداخلة.. أنفه المتدلي المكسور.. رأسه التي تمتلىء بالقروح والديدان التي أفزعها الضوء فراحت تتلوّى في هستيريا.. عينه الوحيدة المطفأة التي امتزج بياضها بسوادها، ثم تركوه وخرجوا..

كرنفـــال

هو.. لا يذكر متى بدأ ذلك تحديدًا.. ولا لماذا – في كل مرة – كان يحدث.. يوم كانوا ينامون نهارًا ويستيقظون ليلاً.. الخيام فـــي العراء، والأكواخ الصفيحية الصدئة، والبيت المهجـــور.. الأجـــساد الهزيلة ترتدي ملابس رثة.. توقد نارًا وتلتف حولهـــا، ثـــم تبـــدأ الأغاني.. تخرج عبر الأفواه المرتعشة خائفة، وَجِلة وسط الأمطـــار والصقيع.. الريح القاسية تضرب الأجساد من الخلف.. ثمة فـــراغ بين الأجساد.. أحدهم غير موجود.. ثمة خائن وَشَى بهم، يلوح من بعيد بصحبة الجنود وهو يرتدي ملابـــسًا جديـــدة.. يمـــشي خلـــف الأجساد المتماثلة الضخمة، ويرتجف..

يوم تظاهروا بـــالموت الجمـــاعي فـــي أمـــاكنهم.. الوجـــوه البلاستيكية الجامدة تقترب من مجلسهم في إصرار.. الأيدي الملوّنة الغليظة والأقدام المدسوسة في الأحذية الجلدية تـــضرب الأجـــساد المسجّاة المتظاهرة بالموت في عنف، تقذف بهـــم وســـط إحـــدى المقابر الجماعية..

يوم استيقظ مفزوعًا بنصف ذاكرة.. التراب يغمر كل جسده.. الأيدي العظمية المصطكّة في رجفة الخائف تنبش التراب والطين والأحجار.. يوم وقفت الهياكل الهاربة العمياء تحت الأمطار، وبين العرائين، عراء الطبيعة القاسي الممتد، وعراء الجسد.. يوم سمع نشيج الولد الباكي على أحد القبور.. تحسّس الطريق إليه.. باغته.. قاسمه عينيه غصبًا، ورمى ملابسه الضيقة.. مشى هائمًا بين الأشجار والبيوت المهجورة.. يوم اصطدمت عينه، عين الطفل بظهر الجندي الضخم.. في البداية تراجع في فزع، ثم لاحت أمامه خيالات الانتقام.. أمسك حجرًا ضخمًا، واقترب من الجندي الذي كان يلوك سيجارة تصنع حوله أدخنة زرقاء كثيفة، ويترنّح.. حين خلع الخوذة للحظات، انهال بالحجر فوق الرأس العاري، وهشّمه تمامًا..

يوم اندسّ في الملابس الواسعة المغمورة بالدماء بعدما مزّق قطعًا من لحم الجندي ولصق في جسده الهزيل.. ارتدى الخوذة، وأمسك البندقية الصدئة، ومشى مختالاً فرحًا، وفي رأسه كانت تتكوّن أفكار جديدة..

ها هو الآن، وسط الريح القاسية والبرد بصحبة أحد الواشين.. يضع قناعًا بلاستيكيا فوق وجهه وعينه الوحيدة.. يمشي

جسده الضخم المدسوس في حذاء جلديٍّ لامع.. ويقترب من أصوات غناء وموسيقى تنبعث خائفة وَجِلَةً من إحدى الخيام المنصوبة قرب البيت المهجور..

أدخنـــة زرقـــاء كثيـــفة

أخبره حارس المقابر أن يبتعد.. أخبره الحـــارس أن المبنـــى المواجه للمقابر التي يحرسها مسكون.. قال الحارس إنه فـــي كـــل ليلة تنبعث أصوات غريبة.. موسيقى، ورقص، وغنـــاء، وهتافـــات محتجّة، وأصوات كعواء الذئاب.. تتبعها أضواء غامضة، وســـباب غاضب.. قال الحارس إنهم جثث بعض المعتقلين القدامى الذين لـــم يفهموا بعد أنهم ماتوا.. قال الحارس إن أشباحًا أخرى تطوف حول سور المبنى وتدخله كل ليلة.. وإن صوته القوي يُفـــزعهم.. قـــال الحارس إنهم يتنكّرون في أجرام بشرية، وإنه يعرفهم من عيـــونهم الزرقاء المتأجّجة المشقوقة بالطول، وروائحهم التابوتية.. وإنهـــم يخافون من بارود بندقيته وحده.. سأله الحارس ماذا يفعل ولد مثله في مثل هذه الساعة المتأخّرة من الليـــل؟.. وملابـــسه القليلـــة؟..

والأمطار؟.. والقضيب الحديدي والأحجار في يده؟.. والدماء المتساقطة من رأسه؟.. والفجوة السوداء التي تملأ إحدى عينيه؟.. تململ الولد.. تراجع الحارس قليلا، وشرع بندقيته.. قذف الولد سبابًا غاضبًا وأعطى للبندقية ظهره وانطلق يجري..

من خلفه تابعه الحارس يتجه ناحية البناية.. من بقعة معتمة تجثم جوار السور خرج أولاد بعيون مفقوءة كانوا ينتظرونه.. راح الولد يشير لهم بالقضيب الحديدي تجاه البناية، ويحدثهم في حماس..

أخبرهم الولد أنه ذات المبنى.. أخبرهم الولد أن الجنود بالداخل جبناء.. قال الولد إن عيونهم المفقوءة تفزعهم.. قال الولد إن الأدخنة الزرقاء فقط هي ما تنفخ ملابس الجنود، وترفع خوذاتهم، وتشكّل ملامحهم.. وإنهم يخافون من حجارتهم الصغيرة وحدها..

❋ ❋ ❋



عبث الأمكنة

"ما ترى من الأشياء إلا ظلّها الأخرس.. وما تحت الرمـــاد إلا جمرات نار.. وسيوقظك الغد من غفوة العمى.."

(نجيب محفوظ)
"ليالي ألف ليلة"

(1)

فجأة، انسابت موسيقى، ومرّت فراشـــات صـــغيرة، وانـهمـــر المطر.. نبتت أشجار، وظهر قوس قزح، وطارت عصافير خضراء من عدّة أماكن..

فتّش في ذاكرته عن آخر مرة قد حدثت فيها أشياء مشابهة.. ثم ساد ظلام مفاجئ يعتذر عن هذا الخلل..

(2)

للمرة الألف يراجع ما سيفعله.. في البداية سيضع قدمه على الأرض العشبية، ويجلس لبرهة.. يتحسّـسها بيديـه محـاولاً أن يستوعب ملمسها.. ثم يعبر بهدوء الجسر الخشبي الذي تمر تحتـه مياه هادئة وصافية.. يتجاوز تلاً ترابيًا صغيرًا.. يدور حول الـسور

الأبيض المتناسق، ويقفز عبر الألــواح المكــسورة فــي الجانــب الخلفي.. يتفادى البركة الطينية في المنتصف.. ثم يتخفّــى حــول شجيرات الياسمين المتناثرة بطول الحديقــة التــي تحــيط بكامــل المبنى.. يناشد العصافير أن تصمت.. يستجدي الفراشات ألا تــشِي به، فيما تنساب فوقه بخفّة سحابات بيضاء صغيرة.. ثم يدخل إلــى البيت الخالي عبر أحد الأبواب الجانبية..

ترتسم على وجهه ابتسامة حذرة.. يتأمّل لمرة أخيرة السماء البنفسجية والجبال الموشاة بالثلوج في الأقاصي، وبيته الأبيض ذو السقف المائل والأعمدة المزخرفة.. يحرّك إحــدى قدميــه ويهــم بالدخول.. تباغته الطرقات على باب حجرته، وينفتح الباب دون إذن بالدخول.. يرتبك، يلوذ بفراشه، ويخفي الصورة وراء ظهره مؤجّلاً حلمه..

(3)

عبر الظلمة التامة عاودته الأمكنة والصور الملوّنــة، وإلــى أذنيه تسرّبت الأصوات، حفيف أوراق شجر، وغناء طيور، وهــدير

رقراق لمجرى مائي قريب.. وغمرت بشرته نسمات باردة ممزوجة بنور خفيف تسلل لونه الأخضر الشفيف عبر مسامات جفنيه المغلقين..

ثمة ألف سبب يجعله يفكر ألف مرة قبل أن يفتح عينيه..

❁ ❁ ❁

هواجس الزيتون

"اخرجي بي من هذه البلاد إلى عالم آخر..
عالم بلا نار..
بلا دم..
خذيني إلى عالم الحلم.."

(صلاح عبد السيد)
"البلية الملوّنة"

لك ألف شكل، ولملامحك ألف هيئة.. وجهك يبدو مثل حرباء مسالمة.. في الليل تجلس في شرفتك المطلّة على غابـة الزيتـون والنهر المصلوب في ضوء القمر.. تحلّق عيناك.. تهمس.. تحـدث النجوم.. تبدو مثل حكيم عجوز قد فهم وحده سر الكـون، وأحـاط بالحقيقة..

أحيانًا تتقلّص ملامحك، وتتلاحق أنفاسك.. تنـتفض.. تقـوم وتشير للبعيد.. تتمتم بكلمات غريبة.. ننظر جميعًا فلا نرى شـيئًا.. ونسمع أصواتًا غريبة صاخبة..

نعرف أنك تعرف.. لا نُثقلُ كاهلك فلا نسأل..

سحابات سوداء تلف القمر المستسلم وتغوص به إلى مكـان مجهول.. وحيثما أشرت تنبثق خطوط حمراء شاحبة.. تنتشر وتمتد أفقيًا وتتوهّج.. ونرى أطيافًا تقترب.. والسماء تزدحم.. والأصوات

تدنو وتصير أكثر صخبًا.. نعطي المشهد تــأويلات كثيــرة، ونظــل نراقب.. ونراقب..

وكنتُ لا أفهم شيئًا..

* * *

في الليل يختلط الواقع بالحلم.. تتماوج الأشياء فــي هلاميــة وسط بقع سوداء ضبابية تبدو وكأنها تسيل عبر فجوة فــي وســط السقف، أو أنها تأتي من اللامكان..

تأتيني أصواتك ليلاً عبر ظــلام الردهــة وزخّــات الأمطــار المتواصلة في همهمات متقطّعة مرتبكة.. صليل سيوف.. أصــوات انفجارات.. هتافات نصر.. نواح.. أبنية تتهدم، فلا أعرف الواقــع من الكابوس.. وأحسبه الليل والأمطار.. أهــرع إليــك.. أتوقّــف، وأختلس نظرات إلى فراشك عبر الإضاءة الخافتة الآتية من الردهة والمتسرّبة عبر باب حجرتك المفتوحة.. أرى فراشــك منخفــضًا.. أعرف أنك صيفًا شتاءً تحب تغطية جسدك ووجهك بأكملــه بغطــاء رمادي ثقيل، وكأنك تهرب من كل شيء.. الغطاء يبــدو وكــأن لا جسد تحته.. كأن جسدك قد اختفى، أو سافر إلى عــوالم أخــرى..

وعندما أخطو وأضيء الحجرة، أجدك.. فأحسبه الظلام والخيالات.. لكني أجدك تهذي.. نظراتك تتجاوزني، وتتجاوز إخـوتي وأمـي.. تشير للاشيء، أو لأشياء بعيدة لا نراها.. تذكر أشياء عـن الغـزو والمقاومة والخيانات.. وعن غابة الزيتون، والنهر المصلوب فـي ضوء القمر، فأحسبها الحُمّى، والكوابيس.. تبسمل أمي وتحوقـل.. وننصرف بعد أن نتأكد جميعًا من نومك.. ودائمًا كنـتُ أتجنـب أن أسألك عن الغبار على كتفيك، والجرح الصامت في جبينك، وبقايـا الأشياء المحترقة في فراشك.. وأنصرف..

* * *

لك ألف شكل.. ولملامحك ألف هيئـة.. وكانـت الانفجـارات تتوالى من حولنا، وفي شارعنا.. والبيوت تتهدّم.. والناس تجـري في كل الاتجاهات وهي لا تفهم شيئًا.. وكنت أيضًا ما زلت لم أفهم.. فقط حين حاصرتني الحرائق ورأيت جثث الأموات تمـلأ الـشوارع والأمكنة كنت قد بدأت أفهم..

حينها، وقفتُ على أحد المقابر الجماعية مبعثر الذاكرة ما بين البكاء والنجيب.. تتصاعد دفقات الأمطار ودويّ المدافع وهـسيس

الرياح وصمت القبور ورتابة مراسم التأبين وظلمة القبـر وعتمـة السماء وانغراس الأقدام في الأوحال المتزايدة..

بكاؤكَ فاق بكائنَا، ونحيبكَ أدهشنا.. زاغت عينـاك وتملّكـك الحزن، بينما كنا نتساءل أي الحـزنين تقـصد؟.. نحفـت وطالـت شعيرات ذقنك.. ثم هرولت إلى الشوارع.. وحـسبنا جميعًـا أنـه الخبال..

غبت عنا كثيرًا..

قال أحدهم أنه رآك هائمًا تحدث نفسك في الأزقة والـشوارع الخلفية، وتتجادل مع كائنات خفيّة لا يراها أحد.. قال آخرون أنهـم رأوك تبكي جوار أحد القبور الجماعية.. قال آخر أنـك انـضممت لإحدى فرق المقاومة، واختفيت..

ثم عُدْتَ..

ترتدي ملابسًا جديدة.. ابتسامةٌ كبيرةٌ تكسو وجهك.. وفـراغٌ كبيرٌ يحتلّ إحدى قدميك..

* * *

في الليل يختلط الواقع بالكابوس، وأعجز عن معرفة أيّهما من الآخر..

قبل أن تموت بأيام.. هاجمتني الكوابيس بشراسة.. اختلطت الأمكنة والأزمنة.. لاحت وجوهٌ قد مات أصحابها، وخيالات تطاردني، وظلال تحاصرني، وأصوات تأتي من عوالم أخرى..

وجدتني أتحسّس طريقي عبر الظلام.. أهرول تجاه حجرتك ممنيًا نفسي بأنها وأنت لازلتما في هذا المنزل، ولم تضيعا أو تختلطا وسط الكابوس.. ثم يهدأ كل شيء فجأة.. أتسمّر أمام باب حجرتك في الضوء الخفيض المتسرّب عبر الردهة الخارجية، ولا أجدك..

تنتابني الكوابيس مجددًا، وتعود من خلفي الأصوات.. فأخطو إلى حجرتك، وأمد يدي إلى قابس الكهرباء داعيًا أنه لازال في مكانه..

عندها، ينتفخ الفراش مجددًا، ويعود جسدك من عوالمه التي سافر إليها..

وعندما أحكي لك، وأسألك أين كنت، تمسح بيدك على

جبيني.. ألمح ذلك البريق في عينيك.. وأرى فيهما أكوانًا أخـرى، وفضاءات أخرى.. أنظر لكتفيك فلا أرى غبارًا، ولجبينك فـلا أجـد الجرح.. ويضيء وجهك، وتبتسم.. فيتحوّل وجهـك إلـى بلّـورة صافية.. أرى فيها غابة زيتون، وكوخًا، ونهرًا، وسماءً فيروزية.. عندها، أنتبه إلى شعرك المغسول، ورائحتك الذكية.. وألمـح علـى كتفيك بقايا غصن، وزهرة، وقوس قزح.. ولا ترد..

❊ ❊ ❊

أحزان المحارب القديم

"أيها الموت..
ما عاد وجهك ملتبسًا..
ومخيفًا..
لقد صار وجهًا أليفًا..
كوجه المطر.."

(عبد العزيز المقالح)
"التبـــاس"

(1) – هلاوس منتصف الليل

يرى خيال الوجه المقطوع النـــازف يـــستقر خلـــف النافـــذة المغلقة، ويتسرّب إلى أرضية الحجرة عبر خصاصها الخشبية صانعًا ظلالاً مخيفة، فيصرخ كالأطفال.. هو المحـــارب القـــديم.. جـــدران حجرته زرقاء تعلوها أوسمة وشهادات وهـــدايا تذكاريـــة وصـــور قديمة وبندقية عتيقة.. يسمع لها أصواتًا صدئة.. تبتسم بأفواه من معدن وزجاج وأوراق وكأنها تسخر منه.. يرى خفقان قلبه الأزرق البارد متزايدًا على صفحة المرآة، ويرى أشباحًا سوداء.. من تحت رأسه يخرج مسدسه.. يضغط الزناد، لكن شـــيئًا لا يحـــدث.. فقـــط يسمع تكّة معدنية مستفزّة.. هي في مكان ما لا ترد.. وهم تركـــوه من فترة.. تناسوه تمامًا.. والوجه قـــد تـــضخّم، واحتـــلّ الحجـــرة بأكملها.. والمرآة التي قذفها بالأباجورة الثقيلة لا تتحطّم.. والنافذة

لا تفتح.. وفراشه يلتف حول أجزاء جسده.. والصباح مازال بعيدًا جدًا.. ثم يسمع صوتها يأتيه مشوّشًا عبر الظلام، تضحك وتقول أنهم قد أتوا لزيارته.. فيحاول أن يعيد صياغة أصواته لتخرج في شكل أفضل.. يعيد رسم الظلال والأضواء المتسرّبة.. يحاول إعطاء منطقية للأشياء.. يبرر للمسدس.. ويغفر للمرآة والأصوات الصدئة، ولها ولهم.. يحاول أن يضمّد الوجه النازف، ويلوم مزلاج النافذة.. يعيد ترتيب الفراش ويبتسم..

أو يضحك..

(2) – صمت الصباح

رغم البرد أصرّ أن يبقى حتى الصباح..

حين انبعث الضوء الرمادي الواهن، تثاءبت.. قامت إلى الداخل.. أعدّت الشاي وعادت تحمل صينية بها فنجان وحيد..

امتدت يده تلوذ بدفء الفنجان الرابض فوق المنضدة التي تتوسّط الحديقة الصغيرة.. سحب ضبابيّة تتراكم، تزحف على

البنايات المجاورة.. تكسو معالم المبنى الأبيض الكبير، وتُغرق السور الأسمنتي الواطئ، والبوابة الحديدية الصدئة..

أتاه صوتها خافتًا يقترح دفء الحجرة ويذكر ما قاله الطبيب.. أجاب بل نبقى.. وألقى من على كتفيه غطاءً ثقيلاً، وقام من على كرسيه مستندًا على عكّازه الخشبي يحاول أن يبعثر الأبيض الكثيف، ويزيح الشحوب الجاثم فوق الحشائش والشجيرات الصغيرة.. يدعو العصافير، ويُخرج الفراشات من مكامنها.. يختلس نظرات نحو البوابة الحديدية.. يرمي الأفق بنظرات سريعة ويتظاهر بعدم الاهتمام.. ولم يستجب إلا عندما تسلل الضباب إلى ثنيات وجهه المتغضّن.. تكاثف، وحال بينهما..

(3) – سراب الظهيرة

عبر النافذة الوحيدة، كانت الطائرات تعلو وتقترب.. بينه وبين البحر مدن وجبال.. غاصت قدمه في الرمل الساخن.. سقف الحجرة مثقوب، تطلّ عبره شمس زرقاء غريبة.. القنابل تقتحم

نافذته إلى حجرته.. يقفز على عوارض خشبية عملاقة تلتهب أسفلها بحيرات من نار.. يجري في كل الاتجاهات.. رجل وحيد فقد الشارع والبيت.. وكانوا من خلفه، يشيرون له بالتقدم.. وكان يقاتل في جسارة.. يقتحم الرمل وسيول الرصاص.. يهتفون له ويشجّعونه.. وحين انتهت الحرب، منحوه عددًا من الأوسمة والشهادات التذكارية.. أقنعوه أنه هرِم وكبر ولم يعد قادرًا على القتال.. أخذوا منه سلاحه وأعطوه عكّازًا خشبيًا.. وحين حاول استرداد سلاحه حاولوا إيهامه بأنه الحرب قد تسببت في جنونه.. حبسوه في منزله وحددوا إقامته.. هم الذين يطاردونه الآن.. من بينهم وجه الطبيب، ووجوههم.. يعرفهم واحدًا واحدًا.. يأمرونه، وكان لدهشته يطيع.. يضحكون.. يظهر وجهها بينهم.. يتظاهر بأنه لم يره.. ينزف جسده بغزارة.. يطارده آخرون.. يهوي في الحفرة الطينية.. تتسخ ملابسه وينكسر عكّازه.. الضحكات.. أشعة الشمس تداعب وجهه في رفق.. يتحسّسها.. يتأكد أنها ليست زرقاء.. فرَاشه الأبيض الدافئ.. خيوط صفراء رفيعة تتسلل عبر فتحات الشباك الحديدي والستائر السوداء المسدلة.. الجهة المقابلة للنافذة تسبح في ظلام خفيف.. الجدار يبدو وكأنه بعيد جدًا.. اعتدل.. رفع فراشه.. أزاح الستارة وفتح النافذة.. تذكّر الوجه.. النافذة استجابت

لفتحاته.. "يعرفهم واحدًا واحدًا".. نسمات شتوية خفيفة تـداعب بشرته.. حين نظر للخلف كانت أشعة الشمس قـد كـشفت كامـل الحجرة.. اتسعت عيناه في فزع وهو يرمـق الجـدران الـصفراء الشاحبة في العنبر الكبير.. عشرات الأسرّة المعدنية تتراص حولـه وتتسع إلى مالا نهاية.. عشرات الملابس البيضاء وأجساد المرضى العاجزة الكسيحة.. أخذوا أوسمته وأشياءه.. يكره الحليب والملابس البيضاء.. بل يكره الزيتون والأدوية.. ليست حجرته.. "صار عاجزًا كسيحًا".. البنايات تحركت لتحجب شمس الظهيرة.. السماء تختبـئ خلفها.. أصواتهم تأتي قريبًا من خلفه خالية من أي معنى.. سـحب سوداء تلوح في الأفق.. المغيب يأتي سريعًا جدًا..

(4) – ظلال المغيب

في ظلام الحجرة يتحرّك مثل شبح.. يلبس معطفـه الثقيـل.. يحكم كوفيّته البيضاء حول عنقه.. يتحسّس أشياءه في حذر.. أجاد إخفاءها.. يلبس نظارته.. يدسّ في جيبه قلمه وأوراقه.. يتأكد من بطاقة هويّته.. لم يأخذ مسدسه.. وبخطوات وئيدة يتخطّى الأجساد..

يفتح الباب الخشبي ويخرج.. يبدو كل شيء مألوفًا.. إحساس غريب يلازمه بينما يتخطّى الردهة الطويلة، لكنه لا يكترث.. يحملق في الصور المثبّتة على الجدران الزرقاء.. يذكر تفاصيل الأشياء، لكنه لا يكترث.. يتجاوز بابًا وراء آخر في ردهات طويلة.. يغوص عكّازه الخشبي في طبقة طينية رقيقة كوّنتها الأمطار الخفيفة على أرضية الحديقة..

بوابة المستشفى مفتوحة.. انطلت عليهم الخدعة.. تمامًا مثلما يفعلون.. لم يأخذ الأقراص.. ألقى الشراب على الأشجار بعد أن أذاب فيه وجه الطبيب، وتركهم ينامون وحدهم.. ها هو يرى الشارع بعد أن حبسوه طويلاً.. يعانق الأرصفة.. ويتبادل حديثًا حميميًا مع واجهات المباني والأشجار وأعمدة الإنارة.. يعرفهم كلهم.. لا أحد في الشرفات.. "لمن هذه الظلال إذن!".. المدينة تبدو مثل قبر في شمس المغيب.. لا أحد في الشارع.. يمشي لا يدري إلىٰ متى.. إلى أين..

أتته الأصوات من خلفه: "هل أنت ....؟!".. لم يلتفت.. لم يفهم.. تهوي عصا أحدهم على رأسه.. أحس بالدم يسيل ويغرق كوفيّته البيضاء.. ينغرس في الطين.. الأمطار تزداد.. لم يعطوه

فرصة للتحقق من ملابسهم.. ليس معه شيء يستحق السرقة.. أصواتهم تختلط.. "اضربوا المجنون".. يعرفهم واحدًا واحدًا.. لم يعبأوا بذراعه المقطوعة.. لم يكن مجنونًا يومًا.. هراواتهم لها ذات اللون وذات الطول وذات الألم.. يرمونه باتهامات لم يفعلها.. الشمس تنسحب في بطء.. قط يموء.. الضحكات.. قدمه الوحيدة تغوص في الطين أكثر.. أصداء طبول تأتي من أمكنة بعيدة.. يأتي آخرون.. الضربات تنهال فوق رأسه.. يصرخ لماذا؟!.. يتكاثفون.. تتهشّم الجمجمة.. لا يسقط.. يتحسّس بطاقة هويّته.. ترك مسدسه.. ينكسر عكّازه.. الدماء تختلط بالأرض الموحلة، لكنه لم يسقط بعد..

❋ ❋ ❋

موت وألوان

"ليس الجمال سوى بداية ذعر لا ينتهي.."

(أحلام مستغانمي)

"عابر سرير" ، بتصرّف

احتوتْني رؤى مبهمة.. اقتحمتْ كياني.. امتزجتْ بـذاكرتي.. وألحّتْ علي..

استقبلتُ لوحة ناصعة البياض.. أعـددت ألوانًـا وفرشـاة.. وعلى أضواء نهارية شاحبة تنضح بها فتحات باب ونوافذ حجرتي المعتمة بدأتُ الرسم..

رسمتُ حبيبتي.. مرمرية شفيفة.. ترتدي فـستانًا زهريًـا.. يطوّق عنقها عقدٌ أزرق، ويزيّن رأسَها تاجٌ من يواقيـت.. تُمـسك بإحدى يديها إبريقًا، والأخرى تفرج عن كف تستقر فوقهـا بعـض البذور..

حبيبتي كانت بلا ذاكرة.. استبدلت ذاكرتها بقلب إضافي.. كان وجهي أول الذاكرة عندها.. كانت تقف في المنتصف، ولي ترسـل ابتسامة، وحلمًا.. ولي كانت تهمس، وتضحك.. ولي كانت تبكي..

حولها بدأت أرسم أراضٍ خضراءَ منبسطة، ومـدىً متـشحًا بصباح أبيض، وبعض الأشجار العالية، وزهـورًا تطـوف حولهـا فراشات ملوّنة.. وبأعلى رسمت سماءً منقوشة بالأحلام، وشموسًا سبعة.. وعلى حافة الأفق، نثرت بعض الأمطار، وبعـض الريـاح المستأنسة، وبعض الطيور الخضراء.. وسـكبت بعـض الـصمت المغموس في تراتيل قديمة مقدسة، وبعض الموسـيقى الهادئـة.. رسمت عصافيرَ، ونهرًا، وأصـدافًا، ونخـلات متعانقـة، وثـورًا وصاحبَهُ.. بنيتُ بيوتًا بيضاء، ومعبدًا كبيـرًا.. شـيّدتُ قـصورًا، ورفعتُ أعلامًا..

ورسمتُ بيتًا زجاجيًا شفّافًا، بداخله منـضدة، عليهـا بعـض الوريقات المتناثرة، ومحبرة، ولوحة فارغـة، وألـوان.. اللوحـة أمامها رسام.. وعلى أضواء نهارية كثيفة تجود بها مسامات البيت الزجاجي، كان الرسام يرصد ما حوله ببراعة، ويرسم..

تذكّرت حبيبتي..

باغتني هاجس غامض.. نداء عجيب أن لابـد للملكـة مـن جنود.. لابد للأحلام من حراس.. نظرت للوحة، كانت قد امتلئـت.. لففت حولها، وبدأتُ أختار جنودي..

رسمتُ ليلاً، ونيرانًا، وكائنات تعوي، وتزأر، وكائنات معتمة ذات عيون مضيئة.. وفي أطراف اللوحة، دسست قنابل زمنية.. وفي المنتصف رسمت خنجرًا فضيًا ذا مقبض رمادي، وسيوفًا وحرابًا، ودماءً تتفجّر من أجساد لا أراها.. أهيب بها كل من يفكر في اقتحام مملكتي..

ورسمت قبورًا، وجثثًا مستباحة.. وسكبت بعض الموسيقى الجنائزية، وقليلاً من الصراخ، وذاكرة سوداء، وعدم..

انتهيت.. لففت حول اللوحة مجددًا، وقد احتلت حبيبتي مخيّلتي..

تجمّدت.. كانت الفوضى تعصف باللوحة..

رأيت الأرض مشقوقة، والشموس السبعة مفقوءة، والبيوت البيضاء تحترق، والطيور الخضراء وقد سقطت، والثور وقد قتل صاحبه.. رأيت العصافير منحورة، والقصور مهدومة.. رأيت دماءً وانفجارات وحرائقَ.. رأيتُ كائناتٍ مذبوحة، وأجسادًا مصلوبة..

وفي البيت الزجاجي، كان الرسام مذهولاً.. يتخبّط في حوائطه، محاولاً أن يخرج.. لكن البيت كان بدون أبواب، أو نوافذ..

حاول أن يكسر حوائطه الزجاجية المحكمة بالفرشاة.. بـــالمحبرة.. بقبضة يده.. لم يفلح..

في المنتصف كانت حبيبتي مقتولة.. الخنجـــر الفـــضي فـــي ظهرها.. تُغرق الدماء فستانها الزهري، وتنساب في كـــل الأمكنـــة حولها..

❁ ❁ ❁

تفاصيل عن المواجهة المرتقبة

"نحن لا نهدد الآمنين.. لا نخيف أحدًا.. فقـــط، نحـــن نحمـــي وجودنا وحضارتنا من صياديكم.. وما نطلبه مـــنكم بـــسيط جدًا.. لا تأتوا إلينا.. نحن لن نذهب إليكم، فلا تأتوا إلينا.."

د.(أحمد خالد توفيق)
"أسطورة أرض العظايا"

- "أواثقٌ أنت من استعدادنا لهم هذه المرة؟.."
- "لا تخف.."
- "أنت تعرف أنهم...."
- "لن نترك شيئا هذه المرة.."
- "في المرة السابقة أخذوا ذراعين وقدمًا وبضعة رؤوس.."
- "لا تقلق.."
- "لكن..."
- "لا ترفع صوتك.."
- "أشعر بهم.."
- "من؟!.."
- "رائحةُ أنفاسهم تملأ المكان.."
- "أختنق.."
- "انصت.. أتسمع وقع أقدامهم؟.. أتراهم؟.."
- "اخفض رأسك.."

- "........."
- "لنؤجّل هذه المواجهة.."
- "إذن.."
- "........."
- "........."
- "ليعد كل منا إلى قبره.."
- "........."
- "........."

❊ ❊ ❊